

إفريقيا اليوم وفانون

سرعان ما أخذ مصير أفريقيا مقاما جوهريا عند فرانز فانون إذ أخذت تجربته وفكره في التوسع أكثر فأكثر حيث كانت البداية من المارتينيك، الوطن الأم وتلاها الانفتاح على فرنسا حيث تجلّت ثورته ضدّ النازية وضدّ العنصرية. ثمّ جاء اكتشافه للجزائر كطبيب نفساني وكمناضل ضدّ الاستعمار أتيح له تحليل مجتمع جزائري يتعرض لأبشع أشكال الاحتلال الاستيطاني، ممّا أدّى به للكشف عن الأسباب الأنثروبولوجية لمختلف أوجه القمع والعنف الجسدي والمعنوي الذي لم تعد تعاني منه مجموعات السود والمغتربين لوحدها بل مجموعات ضخمة عبر العالم. وإدماج فرانز فانون، الطبيب نفساني والمناضل ضمن هياكل الثورة الجزائرية التي أنشئت خارج حدود الجزائر سمح له أخيرا بملاحظة الآثار العميقة للاستعمار عن كثب على مختلف المجتمعات الإفريقيّة وعلى دول ما بعد الاستقلال منذ نهاية الخمسينات.

ونحن على علم بالانتقادات العديدة والقاسية في الكثير من الأحيان التي كان يوجّهها فانون للمؤسّسات السياسية، الحزبية والإدارية المنشأة داخل تلك المجتمعات القائمة كدول مستقلة رسمياً. ونعرف مدى احتراسه من "البرجوازيات الوطنية" القليلة الكفاءة والليّنة في مشاعرها الوطنية التي سرعان ما تنقطع عن الطبقات الشعبية بل تذهب إلى احتقارها. ومع ذلك، كانت انتقادات فانون نابعة عن الروح الثوريّة والثقة في قدرة الشعوب على الإحاطة بالانحرافات والخيانات التي تصيب النظم السياسية القائمة. الجميع يتذكّر تلك التصريحات القويّة التي ختم بها فانون "المعدّبون في الأرض" حيث شدّد على ضرورة التحرّر من كلّ محاكاة سلبية لأوروبا ومنه حاجة الأفارقة إلى الابتكار في اقتراحهم واعتمادهم للحلول الخاصة ببلدانهم: " أيّها الإخوة، لقد انتهت اللعبة الأوروبية نهائيّاً، لا بدّ علينا أن نجد شيئاً آخر. يمكننا فعل كلّ شيء اليوم شرط ألاّ نقلّد أوروبا، وشرط ألاّ يلاحقنا هاجس الرغبة في اللحاق بأوروبا". أوروبا التي قال عنها كذلك في النص ذاته: " غير أنّها استطاعت في ديارها تحقيق كلّ الإنجازات".

اليوم وبعد مرور أكثر من نصف قرن عن تحاليل فرانز فانون غالباً ما نستنتج أنّ العديد من الدول الإفريقية لم تنتهج بالثقة اللازمة النهج الذي يكفل بناء مجتمعات قادرة على المدى البعيد على التوفير لشعوبها اقتصاداً يخلق الثروات الحقيقية – لا الثروات الريعية ولا تلك المستغلة دون هوادة من طرف المفترسين الدوليين- وقسطاً وافراً من العدالة الاجتماعية في ميادين الصحة والتربية والعدالة والوصول إلى الثقافة وما إلى ذلك. والاستنتاج الثاني يحملنا إلى الإقرار باستمرارية الآثار النفسية العميقة التي خلفها الاستعمار والتي تنبعث من جديد بسبب الأزمات السياسية-الإثنية لما بعد الاستقلال. ويبدو أنّ تساؤلات الأطباء

النفسانيين ، كامتداد للفرضيات القانونية، حول ظواهر الاغتراب والانزياح الثقافي وعدم الثقة في النفس تشير إلى أنّ الأفارقة "لم يخرجوا بعد من الليل الطويل".

كرّست العديد من الدراسات لوضعية المجتمعات الأفريقية الحالية بما فيها الدراسات التاريخية والاقتصادية والسياسية والأنثروبولوجية... ولهاته الدراسات أوّلا الفضل في تبيان الفروقات بين واقع كلّ بلد من البلدان الإفريقية. وهي تقرّ أنّ أغلبية المجتمعات الإفريقية تعاني من الخلل المؤسّساتي الذي يتسبّب في معاناة الطبقات الأكثر حرمانا (الفقر، الحروب، القمع إلخ.) وهذا الخلل له علاقة بالعمليات التي تمارسها - سرّا وعلانية- مختلف القوى الخارجية. لكن الوضعية الحالية للمجتمعات الإفريقية لا تلهم البحوث الوصفية أو التحليل التقييمية المتشائمة فحسب إذ أنّ العديد من الباحثين يبحثون ضمن واقع المجتمعات الإفريقية الطاقات والمناهج القادرة على بعث أشكال من الموانسة بل تنظيمات سياسية وبنيات اقتصادية فعّالة. وتشير بعض الدراسات إلى كثرة ونوعية التعبيرات الفنية، الأدبية والثقافية التي تدلّ بها أفريقيا عن ذاتها اليوم. كما يسعى العديد من المثقفين الأفارقة - على آثار فانون - جاهدين لمحاولة التفكّر في مصير قارتنا.

إنّ الملتقى الدولي الذي ينظمه المركز الوطني للبحوث في عصور ما قبل التاريخ، علم الإنسان والتاريخ أيام 1، 2، 3 جوان 2013 بالجزائر يطمح إلى مناقشة والبتّ في التطورات الإفريقية على ضوء الأطروحات والتحليل القانونية. من بين المحاور المدرجة في جدول أعمال الملتقى:

- الأنثروبولوجيا القانونية وإفريقيا (الجوانب النظرية والتاريخية)؛
- تنوّع الوضعيات والصراعات الاجتماعية-السياسية ؛
- شروط التمكين الاجتماعي والسياسي في إفريقيا: جديد المقاربة القانونية.

المجلس العلمي